عبد الغني إنسانا ومناضلا

تعرفت على عبد الغني بالصدفة منذ سنوات، ولم ألتقيه الاّ مرّات معدودة، غير انّ التقدير والمحبة للإنسان والمناضل التي أوحت اليّ بهما المناسبات القليلة في اللقاء به، جعلتني أشعر بألم كبير لفقدانه المبكر.

بنصيحة من صديق، اتصلت به لأطلب منه تحضير دراسة حول المغرب لإنجاز عدد خاص من مجلة هيرودوت (المتخصّصة في الجغرافية والجيوسياسية) يتعلّق بالحركة الإسلامية في العالم العربي الإسلامي، وذهلت كثيرا لقدراته في التحليل، وقابليته في كشف الاتجاهات العميقة من خلال ماهو مرحلي، وكذلك لصفات النزاهة، والتواضع والمروءة التي يبديها في كلّ ما التزم به.

ارتكزت مناقشاتنا اللاحقة حول تجاربنا ومشاكل شعبينا، واكتشفت عبرها صفاته العالية التي اكتسبها خلال الخمسين سنة من حياته النضالية، الشيء الذي جعلني أثمن الى أقصى الحدود نظرته الثاقبة. ففي الأوضاع المعقدة من النوع الذي اجتازته بلدان المغرب العربي، يبذل مجهودا جبّارا لتقريب غاياته ومشاريعه المتعلقة بالمجتمع والمعطيات والتطورات الملموسة بارتباط مع المعايشة اليومية للفاعلين الإجتماعيين. وتحديا لمحاكمة النوايا، يدعو لمحاسبة هؤلاء وأولئك ليس بالنظر الى تصريحاتهم، وإنّما بالأساس من خلال أفعالهم. إذ لم يكن يعتبر المشهد السياسي كأرضية للمناورات أو مباراة شطرنج يعنى بها توجيه الشغيلة والمواطنين كبيادق. انّ ما كان يشغل باله لدى الفاعلين الإجتماعيين هم الرجال والنساء ومشاكلهم، ردود أفعالهم، الصعوبات التي تعترضهم، آمالهم وآلامهم- ولذلك كان يعتبر مسألة حقوق الإنسان غير منفصلة عن حقوق المواطنين، ليس كمسألة انسانية مكملة للأوضاع السياسية، ولكن كرهان أساسي في قلب الصراعات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية ومسألة السلطة. ولهذا كان يتحدّى الصراعات ومناورات الأجهزة التي يشعر فيها بالضرر سواء بالنسبة لقضية الديمقراطية والقضية الإجتماعية، أو بالنسبة للأشخاص والمناضلين والقادة المشتركين.

المرض الذي ألم به لم يسمح لنا بتعميق الحوار الى أقصى الحدود كما كانت أمنيتنا. ولم يسمح له بعرض مشروعه الذي شغل باله طويلا بشكل معمق، أي مشروع مجلة يبذل فيها الفاعلون والباحثون السياسيون المغاربيون جهدا لتجاوز التصورات الضيّقة التي تعيق الإبداع، وقدرات التجييش ووحدة العمل في الحقل السياسي الديمقراطي والتقدمي المغاربي.

ظهرت لي في هذه الفترة القاسية من حياته شجاعته الواعية. فبالرغم من معرفته لخطورة مرضه، تصدّى له وباستمرار مشدّدا على طمأنة مخاطبيه وعائلته (التي عاملته بالمثل) ليس فقط بأحاديثه وطبعه وإنّما أيضا بصلابته الهادئة في متابعة أنشطته، ورسم خطط تصوراته رغم انّ كلّ مجهود كان يكلّفه كثيرا. لقد كان مقنعا الى حدّ جعلني كطبيب يأمل بمعجزة دون أوهام، ومع ذلك حقّق عبد الغني عند أولئك الذين اقتربوا منه أكثر من معجزة، حيث قوى من ثقتنا في الكائنات الإنسانية وقدراتها، وحثنا على تحرّي أكثر الطرق للإبتكار وإعادة الإعتبار للسياسة ودور الأحزاب، وفي مرحلة تآكلت فيها هذه الأخيرة بسبب الضرر الذي جرته العولمة الرأسمالية وامتداداتها المتجلية عبر مختلف الممارسات المهيمنة أو الإنتهازية، وبخصوص نوايانا الحسنة قال عبد الغني: سنحاسب على أفعالنا، لا على أقوالنا.

صادق حجرس *

---

* صادق حجرس، منفي جزائري وطبيب لكنّه خصّص حياته للسياسة وحقوق الإنسان، مقاوم جزائري ومناضل من أجل الحرية، نزاهته وعقائده الراسخة قربته سريعا من عبد الغني، يقينا أنّه لم يعرفه لمدّة طويلة لكن كفاية ليقدره ويتفهمه خلال تطوره. ثقتهما كانت متبادلة.